(٣) رثائية النفس (مالك بن الريب)

(١)

وتأتى يائية مالك بن الريب نموذجا متميزا فى إطار التعامل مع الذات على المستوى الرثائى ، حين تحس آلامها ، وتجتر أحزانها ، تستشعر غربتها البعيدة النائية التي تخشى فيها من اللانهائية والعدم بعيدا عن أرضه ورفاقه ، فإذا بالشاعر يتألم نفسيا إزاء غربته ، فيشتد حنينه إلى أهله ووطنه ، وكأن تاريخ الصعلكة قد سقط من حياته ، فلم يعد يركن لهذا النمط من الحياة ، ولا هو يدين له بصورة من ولاء ، وقد عاشه دهراً كافيا لأن يظل متعلقا به ، فإذا به ينصرف ببقايا فروسيته إلى عالم الجهاد ، ويدخل فى صفوف الفاتحين من المسلمين بعد توبته ، ويعتزل اللصوصية وقطع الطريق ، ويحسب جنديا غازيا ضمن كتائب الغزو التى قادها سعيد بن عثمان بن عفان والى معاوية على خراسان .

وإذا بمالك ينخرط نفسيا فى تلك الصفوف الفاتحة ، فلا تتزعزع فيها نفسه ، ولم يتردد ولم يبد ندماً ، بل وقف موقفاً صلبا ، لم يحد عنه بدليل ما سجله له التاريخ من مشاركته مع سعيد غزو (الصغد) و (سمرقند) ، بل يخبرنا الطبرى[1] بموقفه من سعيد حين رآه مالك وقد كاد يتخاذل فى مجابهة الصغد ، وخشى أن يركن إلى الراحة ، أو يؤثر الصلح على الفتح فغضب مالك من سياسته ، وعبر عن موقفه وغضبه صراحة ، حيث راح يحرضه علي ضرورة الجهاد رغم جهله بأبعاد المواقف السياسية :

مازلت بالصغد ترعد واقفـــــــا ... من الجبن حتى خفت أن تَتَنَّصـــــرا
وما كان فى عثمان شئ علمتـــــه ... سوى نسله فى رهطه حين أدبـــــرا

فلم يعبأ به سعيد ، وظل يسالم الصغد ويساومهم ، فأعاد مالك توجيه اتهامه إليه بقلة الفضل والخير ، لعله يحمسه ليحارب الصغد ويحتل بلادهم ، وراح يزيد من حماسه فيذكره بانتصاراته السابقة ، فى يوم (طاس) ، و(يوم النهر) ، وقد حضرهما مالك معه ، وانتصر مع القوم علي أعدائهم ويومها قال :

يقول خير أمير كنت أتبعـــــــه ... أليس يرهبنى أم ليس يرجونـــــى
أم ليس يرجو إذا ما الخيل شُمصهـــا ... وقع الأسنة عطفى حين يدعونـــــى
لا تحسبنا نسينا من تقادمـــــــه ... يوما «بطاس» ويوم «النهر» ذا الطين